جامعة سوهاج

كلية التربية

المجلة التربوية

العلاقات الافتراضية (الرقمية)

إعداد

أ.د/ منال عبدالخالق جاب الله

أستاذ الصحة النفسية

كلية التربية–جامعة بنها

تاريخ استلام البحث : ١٧ يونيه ٢٠٢٢م – تاريخ قبول النشر: ٢٦ يونيه ٢٠٢٢م

DOI: 10.12816/EDUSOHAG.2022.

ملخص:

تعيد العلاقات الافتراضية تشكيل الوعى وفق مضامين وممارسات جديدة، وتشكيل ما يرتبط به من شعور وانتباه، ذلك الوعى الذى يمثل للمرء جوهر وجوده ويمايزه عن غيره من خلق الله فيدرك حين يدرك أنه هو "هو". وبقدر ماكانت هذه العلاقات الافتراضية انقلابا فى عالم التواصل الاجتماعى بقدر ماهى ثورة معرفية إيجابية مثلها مثل ثورات العلم وتطوراته التى تغير وجه الحياة الانسانية على وجه الأرض، وهو مايستدعى دراستها وتسليط الضوء على أشكالها من مختلف جوانب الاهتمام الانسانى، وجعلها عنوانا للبحث والمناقشة للحد من خطورة انعكاساتها وتحقيق أفضل استفادة مرجوة، وقد أسهمت الحياة الافتراضية الرقمية بشكل عام فى توفير وسائل معلوماتية واتصالية عززت هويات قائمة وأحيت هويات من الماضى وقدمت إلى النور الجديد منها، متضمنة الثابت والمتغير والمقومات الأساسية للكيانات الانسانية التى يتفاعل فى ضوئها الفرد مع الآخر زمانا ومكانا وتاريخا وواقعا وحاضرا ومستقبلا. وهذا هو موضوع المقال فيما يلى استعراضا لمفهوم العلاقات الافتراضية إيجابا وسلبا، وتضميناته النفسية والاجتماعية والتربوية، مع إلقاء للضوء على فترة حرجة فى حياة البشرية ، ألا وهى "أزمة فيروس كورونا" ومااستلزمته من تحول رقمى أصبح عنوان الحياة وطابعها المميز ودفع إلى المزيد من تكريس العلاقات الافتراضية معايشة ومواكبة.

الكلمات المفتاحية: العلاقات الافتراضية– التحول الرقمى– الوعى– مواقع التواصل الاجتماعى.

حان الوقت ليبرز إلى المقدمة مجال دراسة جديد فى علم النفس يتناول الشخصية الإفتراضية ويُدخلنا إلى عالمها التكنولوجى الرقمى: علاقاتها الرقمية ولغتها الرقمية بل وحياتها الرقمية التى غيرت وجه البشرية، واستدعت أن تواكب العلوم المختلفة وعلى رأسها علم النفس هذا التحول الرقمى الذى أصبح واقعا يغير كل يوم مسار الانسانية ويفرض البحث والتأمل من أجل فهم أفضل وعلاقات يسودها الاحترام وتزينها المصداقية.

ها قد أصبحْتَ شخصية افتراضية.. كل ماعليك هو أن تُنْشِأَ بريدا إلكترونيا وحسابا على الفيسبوك ثم تويتر ثم الإنستجرام وهَلُمَّ جرا... هاقد أصبحت صاحب كيان رقمى ويمكنك ويالعجب أن تحب وتكره، وتصدق القول وتكذب، وتفاخر وتنافس، وترضى وتغضب، تبادىء بالعلاقات وتكتسب الصداقات وتكتب المقالات، بل وتكون حكيم زمانك، ليس مهما أن تذكر عمرك الحقيقى، ولا جنسك، ولاصورتك، ليس مهما أن تدعى مالا يطابق الواقع وتبدو مثاليا متجملا.

فى عالم الإنترنت ... لن نخلو إلى أنفسنا بعد اليوم إلا قليلا، لقد بات من الصعب علينا البقاء بمفردنا بعض الوقت، بل نبدو وكأننا فقدنا القدرة على ذلك، ورغم ذلك، ماعادت حكايات مائدة الطعام تَجذبنا، ولامحادثات رحلة القطار تُسَلينا، ولا مقابلة عابرة بالسوق تُسعدنا، إننا الآن موجودون فقط من أجل تبادل الرسائل الرقمية وكتابة التعليقات، بل ونشعر بأننا مسئولون إزاء ذلك مسئولية تامة.

نعيش على مواقع التواصل الاجتماعى علاقات تُلْهينا عن شركاء الحياة وعن أولادنا وعن أصدقائنا، نتناول الطعام معهم لكننا نتغذى على الأخبار على هذه المواقع الإلكترونية، ومعنا Siri تطبيق على هواتفنا يخبرنا ماذا نفعل إزاء كل شىء، لا بأس.. إنه متاح دائما، إنه كالانسان الآلى، يشعرنا أنه يفهم كل شىء بينما لا أحد يدعى أنه يفهم أى شىء.

فهل حقا نود أن نتفاعل تكنولوجيا فى علاقات افتراضية بشكل أكبر من التفاعل مع بعضنا البعض؟ وهل يمكننا آنذاك إضفاء معانٍ انسانية على هذه العلاقات؟ هل نود ذلك حقا؟ وهل يمكن أن نمزج بين هذا وذاك، فتكون لنا إطلالات عدة على الحياة بدلا من واحدة واقعية وفقط.

أخشى ما أخشاه أن تصبح هذه التكنولوجيا يوما ما فى الملابس والنظارات والساعات، يقول لى قائل: بل هى كذلك فعليا، وبعضنا يراها فرصة عظيمة لإنجاز الأمور

بالشكل الصحيح، فلا قرارات سريعة ولا ردود فورية، إننا نعيش بحسب البعض علاقات أخفقنا فى تحقيقها على أرض الواقع.

تختلف الأسباب والأهداف للتنقل بين الواقع والعالم الافتراضى اختيارا واضطرارا، موازنة بين العقل والقلب، يطلقون العنان للتعبير ألما أو استمتاعا، يلبسون الملابس التنكرية، حبا أو ضيقا وهروبا، أو تسلية وفراغا، أو تطلعا واستكشافا، وفى كلٍ قد يجدون ذلك التعويض السابق الإشارة إليه أو قد لا يجدونه، وماعليهم وقد غدا الدخول إلى العلاقات الافتراضية كالخروج إلى الشارع تماما .

اترك جوجل ياعزيزى القارىء وتحدث إلىَّ، اتركه وتعال إلى نزهة، اتركه وراقب طفلك على أرجوحة بالحديقة، لا أسألك التخلى، فما عاد ذلك ممكنا، ولكن تعال نستخدمها بذكاء أكثر.

وحيث أصبحت العلاقات الاجتماعية افتراضية فلنعتمد معايير جديدة للحكم على اللياقة واللباقة والكياسة وحسن الذوق، ولنغير توقعاتنا بشأن بقاء الطرف الآخر "أونلاين " طوال الوقت، وبشأن انتظار الرد الفورى على الرسائل، وبشأن مايشعرنا بالخزلان من هذا الآخر، هذا الذى نقول أنه لايفهمنا ولا يقدم لنا الرفقة بينما نحن متصلون أو متعلقون بغيره على طرف العالم البعيد ..

هذا صديقى افتراضيا، فقط يرسل أحدنا طلب صداقة وهاقد أصبحنا صديقين، وأين ذهبت ركائز المعنى حيث خبرات السنين الطوال بالمدرسة والجامعة والحى والبلدة، ومعايشات الأفراح والأحزان، إنه اعتماد سريع وصلاحية فورية، وليس لك إلا منح الثقة إن أردت أن تستمر، ولاتختبرها ياصديقى ، فأين لك وكيف، وإن جاملتك فبادلنى الفعل، وإن انتكست صداقتنا فلم تكن هناك بالأساس توقعات بأفضل مما آل إليه المآل. ولاتغفل تلك الجرأة التى ألمت بالعلاقات الافتراضية فأصبح الرد والتعبير عن الغضب أو الاحتجاج أو ما إلى ذلك مباشرا واندفاعيا بلا قيود ولا ضوابط تفرض الاحترام وتراعى الآداب.

ولم لا وقد نصب البعض نفسه على ساحات العلاقات الافتراضية راعيا للآداب والعلوم والثقافة، وهم الناقدون دوما، والرافضون دوما، يثرثرون لكنهم لا ينتجون أدبا ولا إبداعا، دعاواهم شخصية، وقضاياهم شخصية، وحججهم كذلك بالمثل، بعيدا عن الأسس المنهجية الحاكمة والتحليلات الجدية، ومرتبط بذلك ويالأسف أيضا شيوع انتهاكات الملكية الفكرية

والسرقات الأدبية والاقتباسات غير المقيدة وانتحالات واستشهادات تتخطى المصادر إلى ادعاءات صريحة بالسبق والموهبة.

ومثل تلك العلاقات التى تغلفها صداقات الطلب والرد تكون علاقات العواطف والمشاعر والحب أيضا فى بعض الأحيان هربا من قيود مفروضة، أو تعويضا، أو إلتجاءًا وحماية من كبح وقمع وانغلاق ضد حرية التبادل على أرض الواقع لأى أسباب منطقية أو غير ذلك.

فى زمن العولمة والقنوات الفضائية ومواقع التواصل الاجتماعى والابتكارات التقنية المتتالية تراجعت العلاقات الاجتماعية التقليدية مقابل تصاعد وتيرة العلاقات الافتراضية التى أفضت إلى عولمة العلاقات والانتقال بها إلى مجتمع متعدد الثقافات واللغات والصداقات، تتصاعد فيه أيضا الهويات الافتراضية التى تعزز الشعور بالعزلة والاغتراب، غير أنها ليست تلك العزلة المحمودة التى تعتبر المأوى الحقيقى للتأمل ومعرفة الذات على نحو فلسفى، باعتبارها واحدة من القيم الانسانية المساندة للسلوك والتى تدعم تشكيل الوعى والتصالح مع النفس، فليس كل ابتعاد عن الآخر وحدة وانطواء، وبعض العزلة إلهام واستكشاف ومرجعية ذاتية. والسؤال هو : هل تتيح العلاقات الافتراضية مساحة للتصالح مع النفس ورؤية كل شىء بوضوح؟

إن الحديث عن العلاقات الافتراضية معناه أننا يجب أن نعيد تعريف مفاهيم عدة أهمها: التواصل، والهوية، والثقافة، والمواطنة، والخصوصية والسرية، والأخلاقيات، والزمان والمكان، والمجتمع والعالم، إذ يتعزز الفضول وتتطور الرغبة فى معرفة الآخر، وتتقاطع اعتبارات أساسية كالشفافية والمصداقية والتشابه والاهتمام والثقة، كما تبرز قضايا حرية العلاقات والخصوصية، وحقوق الصداقة، والملكية الفكرية، بل والديمقراطية ، وكلها دوائر اهتمام يجب الالتفاف حولها لكل مهتم بدراسة العلاقات الافتراضية الرقمية.

إن تدفق التواصل الرقمى عبر الزمان والمكان على نحو فائق وبسرعة غير مسبوقة أحدث ثورة فى الخصائص الموضوعية للزمان والمكان وكيف نتمثلهما، وقد برز عنصر الزمان واختفى عنصر المكان، سواء فى أنفسنا أو فى علاقاتنا أو فى مجتماعاتنا التى هى قيمة انسانية عليا سواء على أرض الواقع أو افتراضيا، وها هى الهوية قد أصبحت افتراضية رغم شيوع ثقافة استخدام الإسم الحقيقى فى التواصل الرقمى، ومازال نحو ٩% من مستخدمى

الفيسبوك على سبيل المثال لديهم حسابات وهمية، وبالتالى هويات وهمية، والأخطر فى الأمر، أن أكثر الأمور حميمية بالنسبة لنا وهو الهوية بات متأثرا بالتواصل الرقمى وبعلاقاتنا على الإنترنت، أما اللغة فقد تغيرت أحوالها تغييرا تاريخيا وانعكس ذلك على قدرتها على التبليغ وتجاوز حدود الزمان والمكان، وتكثف الخطاب بها من خلال الصور والأيقونات والأشكال والوجوه، وهاهى لغتنا باتت لمسية على الشاشات أكثر منها يدوية، سريعة وآنية بقدر كونها غير مادية، متشعبة وتعددية ولكنها عابرة ومتغيرة وهشة، ذكية ومتناهية الصغر، افتراضية بحق لكن لها فعلا وتأثيرا، اصطناعية لكنها عالمية، أفقية وسطية لاتقتصر على نخبة متعلمة، تعتمد على المحاكاة والتخيل لا التمثيل والقياس. وهاهى الوجوه التعبيرية تخبرنى أنك حزين أو غضبان، ثم أجهل أنا قراءة هذه الوجوه فأرسل لك وجوها غير التى تنتظرها، وتغيب بيننا دلالات العلاقة، ويحدث تنميط منظم لعملية التعبير عن المشاعر لانملك أمامه أنا وأنت إلا محاولة التواصل من جديد وإلا خسرنا الأمر برمته، كما لا ننسى أن اللغة العربية على وجه الخصوص قد أظهرت ضعفا فى مواكبة المحتوى الرقمى مقابل هيمنة اللغات الأجنبية.

إن العلاقات التى نتحدث عنها فى هذا المقال ليست فضاء افتراضيا وهميا بل لقد أصبحت بدورها واقعا يلعب دوره فى إعادة تشكيل الوعى والسلوك، ولها قوة الفعل بل والمبادرة فى مختلف المجالات. إن الحال ليس مجرد تقنيات ورموز، إنه ثورة فى الوعى وعلى الوعى والسلوك والعلاقات، ويستلزم طرحا ونقاشا علميا جديا، مع مراعاة خصوصية المجتمعات، والتوجهات السياسية والمادية والعوامل الثقافية والاجتماعية واحتمالية إعادة بناء كل ذلك من جديد.

خوفى على طفل لا يملك ذاكرة والدية تدعم استيعابه للنصوص والقدرة على تحليلها، ولا تحمى صموده فى وجه التشويش والتشويه، ولا تتابع إنتماءه إلى هوية جمعية واعية، بل وتسلمه إلى ثقافة التفاصيل وذاكرة الاستهلاك، وتؤسس لمواطنة رقمية تستدعى ذكاء وفطنة وثباتا عند مواجهة مجرياتها. وتستدعى تمييزا بين ماهو واقعى حقيقى وافتراضى نشط وغير نشط. وتستدعى كذلك حمايته من مخاطر انتهاك الخصوصية والقرصنة وتعرض الهوية للانفصام.

هاقد أصبحت أساليب التربية الحديثة وضوابط التوجيه غير كافية وغير مواكبة لضبط إيقاع مجريات العلاقات الافتراضية لأن الأمر تخطى مجرد التواصل ليصبح عمقا يضرب طريقة التفكير والسلوك والمنطق بكل أبعاده.

برأيى أنه لم يسبق للبشر أن أنفقوا كل هذا الوقت والجهد للتواصل فيما بينهم، إنه تكريس غير مسبوق، وقفزة على كل الحدود وخطوط الجغرافيا، وتباين المستويات المادية والاجتماعية والفكرية والثقافية، علاقات افتراضية لكنها مفعمة بالحيوية والتفاعل وتبادل الرأى وإثراء الخبرات وتوثيق الصلات، كل ذلك فى سبيل صورة يحرص الجميع على استثمارها لأنها بمرور الوقت تتحول إلى حياة افتراضية نوعية لا ينقصها تبادل الرسائل بقدر ماينقصها بناء جسور أعمق، هذا إذا انتوينا أن نضيف "الكثير" من الانسانية إلى هوياتنا الافتراضية الرقمية.

إن المجتمعات الافتراضية لايمكن أن تكون بديلا للمجتمعات فى الواقع، حيث الثقافة جزئية وغير ثابتة، والنهايات واردة للعلاقات كل حين، ودور الأجهزة الرقابية لا يمكن إنكاره، سواء من أجل الحد من الفوضى أو من أجل حماية الخصوصية.

إن مواقع التواصل الاجتماعي هى منظومة شبكات إلكترونية عالمية مجانية إلى حد كبير تسمح للمشترك بها بإنشاء موقع أو حساب خاص به وتربطه من خلاله بغيره من الأعضاء الذين لهم أو ليس لهم نفس الاهتمامات والهوايات وذلك من خلال نظام اجتماعي، ومن هنا سميت اجتماعية لأنها أتت من مفهوم بناء أو تأسيس أو إنشاء مجتمعات أو مواقع يتعرف من خلالها المشترك على آخرين من خلال عملية التصفح، وليست مرتبطة بسياق زمنى ولا مكانى، بل بمبدأ الاهتمامات المشتركة وعناصر اللغة والثقافة والهوية المشتركة تحقيقا للتواصل.

وفى ستينيات القرن الماضى عرف العالم آلة عرض ثلاثية الأبعاد ومقعدا متحركا كانا يستخدمان فى صناعة السينما، ومن قبلهما كان المسرح كفيلا بخلق بيئة افتراضية يُمْنَعُ فيها تأثير العوامل الحسية، إلى أن توصل علماء الكمبيوتر إلى محاكاة الواقع فعليا، وحدثت ثورة فى مجال التعلم وفى مجال الألعاب الإلكترونية، وكلما كانت التطبيقات أكثر جاذبية وتفردا كلما كانت أكثر فاعلية، وهل هناك أمتع من القيام برحلة إلى أعماق المحيط دون مغادرة الفصل مثلا، وهل هناك ماهو أكثر إثارة من الجلوس على كرسى داخل فوهة بركان

تتفجر حممه، وكل ذلك من خلال إمكانات لا نهائية من الضوء والصوت والرؤية والإحساس رغم كونه كله افتراضيا لا حقيقيا.

يتخلى الملايين يوميا عن الواقع تفضيلا للحياة الافتراضية ويشاركون الآخر فى منتديات الحوار وغرف الدردشة منتحلين شخصيات افتراضية تدور فيها دوائر الوعى دورات لا نهائية ويلعب فيها البعد الثالث دورا رئيسيا، فلا يدرى المرء هل هذا هو الوهم أم هذه هى الحقيقة.

وبين هذا وذاك تعتمد الدول والحكومات سياساتها الوطنية لجودة الحياة الافتراضية، وترفع مؤشرات التنافسية الرقمية، وتحرص على تسليح الأفراد بأدوات متكاملة لضمان بيئة رقمية إيجابية صحية تجعل من الحياة واقعا إيجابيا منتجا وآمنا فى ذات الوقت.

إن رقمنة الحياة فى سياق ثورة تقنية المعلومات وثورة الاتصالات قضية بحث جديدة فى مجال الدراسات الانسانية، وروادها منهمكون فى تحديد ملامحها وأبعاد تأثيراتها، فها نحن نعيش زمن وباء الفيروس "كورونا" ونعيش أيضا زمن وباء المعلومات، فقد كان تفشى وباء المعلومات أسرع وتيرة من تفشى الفيروس ذاته، فمعظمنا شغوف بجمع المعلومات والوقوف على أحدثها، لكننا لسنا على نفس درجة الشغف بالتدقيق فيها، وأصبحت الحاجة إلى لقاح "الثقة" أكثر إلحاحا من الحاجة إلى "لقاح الفيروس"، الثقة فيما بيننا وفى بعضنا البعض، الثقة فى حقوق الانسان والاحترام المتبادل وبخاصة بعد أن تراجعت آليات فرض العولمة، وانكفأت المجتمعات على نفسها وأغلقت مطاراتها وبوابات الدخول عبر حدودها.

هل نحن خائفون؟ هل نحن مذعورون؟ هل نحن مكتئبون؟ هل نشعر بالتهديد، أم أننا واثقون أن الازمة ستمر؟ إن لسان الحال يقول أننا كل هؤلاء، نتابع أخبار الوباء ونجمع المعلومات عن الفيروس، وعن علاج المتاعب الناجمة عن العدوى به، ولكننا فى ذات الوقت ننشر وباء معلوماتيا لأن الساحة تعج بأخبار مغلوطة أو زائفة، ناهيكم عن مستشفيات متنقلة تنشر بروتوكولات علاجية و وقائية نجم عنها التكالب على شراء الأدوية، يصدرها نجوم صفحات الإنترنت ومحبو الشهرة أحيانا، الذين يمنحون أنفسهم ألقابا يصادق عليها جمهور المتابعين، فلديهم علم لايسعهم كتمانه، وهم يقدمون للبشرية خدمات لم تكن تتوقعها، وعلى الجانب الآخر نجد آخرين من حسنى النية والبسطاء الذين يخافون كتمان أى معلومة مهما كانت محدودة أو على غير أساس علمى، وغيرها من أشكال الهراء الذى قد يذهب إلى

تعريض حياة الناس للخطر، وكلما تناقلنا معلومة نسأل بعضنا: مامصدرها؟ ثم وقبل أن نتلقى الإجابة نعيد نشرها، وهكذا دواليك.

إذا كان وباء الكورونا عدوا كشر عن أنيابه ووضع حدا لكثير من الأمور التى كان مسلما قبولها، ومن بينها على وجه الخصوص ماينبغى علينا فعله إزاء قدرتنا على التمييز بين الحقائق والأوهام باعتبارها سلاحنا فى معركة المقاومة والحد من انتشاره، فإن وباء المعلومات عدو لايقل خطرا وينبغى التصدى له بالمثل.

إن وباء المعلومات هو عدم اليقين إزاء مستقبل الأحداث مرتبطا بما تم اتخاذه من قبل معظم حكومات العالم من إجراءات تباعد مكانى ودعوات للبقاء بالمنزل وقيود الإغلاق وتعليق الأنشطة، وارتباط ذلك كله بأزمة اقتصادية ضاغطة تضيق حلقاتها يوما بعد يوم، وما تلا ذلك من ابتداع أنشطة ترفيه بعضها غير هادف أو غير ذى مضمون للتقليل من شعور القلق والتوتر وأعراض الاكتئاب، وعلى التوازى استمرارية فى مجموعات ودوائر العمل والدراسة والتدريب عبر وسائل تكنولوجية متاحة، وفى خضم كل ذلك طور الكثيرون علاقات افتراضية كما طوروا أيضا اضطرابات نفسية واختلالات سلوكية واضطرابات نوم وأكل ومشاحنات أسرية، ثم اكتمال دائرة الخطر بعد قرارات رفع الحظر وتساؤلات ملحة عن منطق وجدوى القرار فى مقابل الرهان على وعى الأفراد الذى كان وسيظل اختبارا مفتوح المدة.

وفى أوقات الأزمات تلك تبرز أسئلة ملحة ويتطلب الأمر إجابات فورية، والمشكلة هى أن ذلك لايحدث بالسرعة المطلوبة، ففى زمن الإنترنت لايكون الوقت كافيا لتحليل المعلومات وتقييمها فى نفس الوقت الذى يتم فيه تكرار تداولها وانتشارها عبر مواقع التواصل وغيرها من منصات الكترونية، مع ميل الأفراد إلى تصديق مايتسق مع معتقداتهم أو آرائهم السابقة ورفض ماهو عكس ذلك.

ولابد من التدخل الفورى للتقليل من هذا الوباء بل والتعامل معه بإجراءات احترازية لاتقل أهمية عن مثيلاتها فى مواجهة وباء الفيروس اللعين، فلقد بلغ الأمر بالبعض أن سماه أو وصفه بالهشيم الرقمى الذى تأكله نار متقدة تنشر فى ألسنتها الزيف والتضليل، ويجب تبيان خطرها الكارثى للعمل على إخمادها والنجاة من جحيمها الذى يتبدى إسرافا واستهلاكا فى مشاركة كل ماهو غير حقيقى.

أما وقد اعتبرنا وباء المعلومات فى زمن "كورونا" مثالا لما يمكن أن تنغمس فيه المجتمعات من حياة افتراضية وعلاقات افتراضية فقد اهتم العلماء بدراسة حقيقة العلاقات الافتراضية الجديدة، التي تشكلت في البيئة الافتراضية، وأثرت على العلاقات الاجتماعية التقليدية التي ترتبط بمنظومة قيمية راسخة، وما نتج عن ذلك من آثار سلبية أضعفت أواصر العلاقات بشكل عام. وأضحت تهدد كيان الأسرة والمجتمع، وجاء تلمس هذه المشكلة من الظواهر السلبية الناتجة عن انغماس أعداد كبيرة من المستخدمين في البيئة الافتراضية، من دون إعداد و وعي مسبق، وتشكلت علاقات افتراضية تختلف عن العلاقات الاجتماعية المرتبطة بالقيم والمعاني الإنسانية التي ترسخت في المجتمع العربي منذُ قرون، مما ترتب على ذلك ظهور العديد من الصعوبات بل ومعضلات التواصل، والتي تضخمت وانتشرت بسرعة كبيرة حتى تحول قسم منها إلى مشكلات شديدة التشعب والتعقيد، وأضحت بين ليلة وضحاها تمثل تحديات تواجه التماسك الأسري على مستوى الأسرة والمجتمع.

ولدراسة هذه المشكلة ومعالجة الآثار الناتجة عنها تم استخدام المنهج الوصفي لتوصيف المشكلة ومسح عينة من مجتمع البحث، وتمت الاستعانة بالمنهج التحليلي، لتحليل بيانات الدراسة الميدانية واستخلاص النتائج التي تجيب التى كان من أبرزها أن ٥٧.٣% من المبحوثين يعتقدون بأن الحياة الافتراضية أضرت بجميع علاقاتهم الاجتماعية، مقابل ٢٣.٦% يرون أنها أضرت بعلاقتهم مع الأهل والأقارب، مقابل ١٩% يعتقدون أنها أضرت بعلاقتهم مع الأصدقاء وزملاء العمل، وأشارت النتائج إلى أن ٤٤% يعتقدون أنها تسببت فى تفكك الروابط الأسرية، مقابل ٢٢.٦%. يرون أنها أسهمت في تطوير حياتهم الاجتماعية، وكان ١٤.٣% من الأفراد يرون أنها يمكن أن تساعد في تقوية الروابط الأسرية، و١١% منهم يعتقدون أن لها آثارا أخرى، بينما يعتقد ٨% أنها تسبب تراجع الحياة الاجتماعية.

إن نتائج الدراسات تشير إلى أن ٢٠% من أفراد المجتمع يقيمون علاقات افتراضية لإشباع حاجات اجتماعية مفقودة عند الأسرة والأقرباء، و١٢.٣%. يقيمون هذه العلاقات لإشباع حاجات مفقودة عند الأصدقاء، و١٦.٦%. أقاموا هذه العلاقات لإشباع حاجات عاطفية مقابل٨.٣% لإشباع حاجات مفقودة عند زملاء العمل، وكان هناك ٤٢.٦% يقيمون هذه العلاقات لأسباب أخرى. أتضح من النتائج أيضا أن ٥٩.٣% لا يعتقدون بأن

العلاقات الافتراضية التي يقيمونها على مواقع التواصل يمكن أن تكون بديلاً مناسباً عن علاقاتهم الاجتماعية، بينما يعتقد ٣٢% أن العلاقات الافتراضية يمكن أن تكون بديلاً لعلاقاتهم الاجتماعية، مقابل ٨.٦% يعتقدون بدرجة كبيرة أن العلاقات الافتراضية كانت بديلاً مناسبًا لعلاقاتهم الاجتماعية.

ووجهت هذه الدراسات إلى عدد من التوصيات التي تدعو إلى تكثيف الاستقصاء وتحويل النتائج إلى خطط وبرامج لإيجاد الحلول المناسبة لمواجهة الآثار السلبية الناتجة عن هذه المشكلة.

وفى عام ٢٠١٢ تخطى عدد مستخدمى الفيسبوك المليار مستخدم فاعل، وذكر زوكربرج أن الحاجة إلى التواصل هى ماتجعلنا بشرا، وتجلب معنى لحياتنا، وأصبح العالم كله لايستغنى عن مواقع التواصل الاجتماعى ومنصات التعلم ومحركات البحث، غير أن اهتمام دوائر البحث بالعلاقات الافتراضية جاء بشكل أوضح فى المجتمعات التى تتمتع بدرجة أكبر من التقدم التكنولوجى، ولا يخفى علينا أن هناك على أطراف الكرة الأرضية مجتمعات لاتملك شبكة إنترنت، وماتزال البحوث والدراسات فى هذا الصدد تخطو خطوات أولية مبكرة، وهى تركز فى أبرز اهتماماتها على عوامل الإفصاح عن الذات ومصادر الدعم الاجتماعى وحساسية الحميمية والخصوصية فى العلاقات الافتراضية الرقمية، وتركز أيضا على تأثير ذلك على شعور الأفراد بالرفاهية الذاتية، وماقد ينالها من تماس بعد أن أصبح الحديث عن الخصوصية ضربا من ضروب الأنانية، فإنترنت الأشياء يخبرنا أن كل شىء متاح ويسهل الوصول إليه، وكل مانقول ونفعل، بل وكل مانفكر به يمكن أن يصبح معروفا للآخرين، وماعاد المرء يملك رفاهية الضبط الاختيارى إلا قليلا، وإن كان لا بأس يملك مايسميه علماء النفس تقديم الذات الإنتقائى استثمارا لصورة الذات وتبادلا للكشف عنها ونيلا للاستحسان والرضا فى مجمل العلاقات الافتراضية. والدعوة متاحة اليوم لتكون هذه العلاقات الافتراضية مساحات لاكتشاف المواهب وأصحاب القدرات الخاصة والأعمال المميزة، ومشاركة فى الأنشطة الخيرية والأعمال التطوعية، ومنصة لانطلاق مشاريع شخصية وابداعات عملية، وبوابة معلومات وخدمات تعليمية وثقافية، وتقريبا للفجوة بين الأجيال.

وحيث إننا نعيش زمن "الكورونا"، زمن التباعد الإجتماعى، فالحق أنه ليس تباعدا اجتماعيا ولكنه تباعد مكانى، التمسنا فيه احترازا، ووليا وجوهنا شطر التبادل الافتراضى

والعلاقات الافتراضية، غُلقت الدراسة وأُغلقت قاعات الدرس ففتح الانسان برحابة عقله وسعة صدره منصات التعليم عن بعد، وفتح مغاليق الحظر وكسر أنف كورونا، وعرفنا جميعا كيف أن هذه الحياة الافتراضية يمكن أن تكون الملجأ من ذعر ألم بالعالم كله، أبهرتنا وكشفت لنا عن ثروة رقمية وموارد تعليمية مواكبة، وتعالت الأصوات بعد تكهنات وتوقعات تكاد تصل إلى درجة التأكيد بأن جزءا كبيرا من التعليم بل وكل التدريب يجب أن يتحول إلى منصات إلكترونية برعاية افتراضية مع رجاء ألا يعود الأمر إلى سابقه بعد انحسار الأزمة بإذن الله، إلى جانب توصيات بتفعيل التحول الرقمى وبلورة أدواره المستقبلية.

إن الحياة في القرن الحادي والعشرين والذي مضى منه خمسه تقريبًا تستلزم منا أن نملك كيانات وهويات وشخصيات وإمكانات ومهارات متمايزة ومختلفة، وتكون كلها مرتبطة ارتباطًا أساسيًا بالتكنولوجيا واستخدامها وتوظيفها وحسن الاستفادة منها دون أن نتحول لنصبح عالة عليها وعلى العالم الذي تميز بها، وإذا كنت ممن ولدوا قبل العام ١٩٨٥ من القرن الماضى فأنت ممن يسمونه مهاجرا رقميا، وستضطر اضطرارا للتوافق مع لغة العصر الرقمى وتقنياته الحديثة، وستضطر إلى الجلوس على شبكة الانترنت واستخدام الأجهزة الذكية، ويعد مارك برينسكي Mark Prensky (2001) أول من صاغ مصطلح "المهاجر الرقمي" لوصف أي شخص ولد فعاش قبل العصر الرقمي، إذ لم تقدم لهم ولم تعرض عليها المستحدثات التكنولوجية إلا في مرحلة متأخرة من حياتهم، ومع ذلك حاولوا التكيف معها وتعلم كيفية التعامل معها مقارنة بالأشخاص الرقميين الذين ولدوا وتربوا في العصر الرقمي .

وقد تشكلت صورة "المهاجر الرقمي" من شكوى بعض المعلمين الذين يواجهون أوقاتا صعبة في التواصل مع الأجيال الجديدة نتيجة الفجوة الرقمية، إذ أن المتعلمين الرقميين يتحدثون لغة مختلفة عن لغة المعلمين المهاجرين رقميًا، ويلزم لسد هذه الفجوة تغيير الطرائق التي يتفاعل بها المعلمون مع المتعلمين بما يقتضيه ذلك من حتمية تعلم كيفية التعامل مع المستحدثات التكنولوجية للعصر الرقمي .

ومن جانب آخر لا يأخذ مفهوم "المهاجر الرقمي" في الحسبان الأشخاص الذين استطاعوا التوافق بسلاسة وإبداعية مع العصر الرقمي، فضلاً عن أنه لا يأخذ في الاعتبار مجتمعًا كاملاً من الأطفال الذين لا يتوافر ولا يتاح لهم ذلك الفضاء الشبكي الإلكتروني أو الإنترنت والتقنيات والأجهزة الذكية فيجدون أنفسهم خارج نطاق الجماعتين .

وقد يكون من واجب الأمانة تجاه الطرح أن نكشف عن وجه إيجابى وصورة مضيئة تأخذها علاقاتنا الافتراضية على فضاء الإنترنت، فحيث بات الاهتمام بالمعرفة الانسانية غاية فى الأهمية ذلك أنها تزودنا بعديد من المعلومات السيكولوجية التى تفسر الشخصية الانسانية، وحيث يلعب منظور الزمن المستقبلى والتوجه نحو المستقبل دورا بارزا بما يشتمل عليه من تقييمات وتوقعات مستقبلية، فمن المهم بمكان استشراف المستقبل من خلال رؤية عقلية مثالية فريدة لما سيبدو عليه الغد، ويتم ذلك بأن يستشعر الفرد طاقاته المحفزة ويعتد بإمكاناته ويعتبرها قابلة للتحقيق والإنجاز.

لقد ألغت مواقع التواصل الحدود الجغرافية على مستوى العالم كله وأصبحت الآن الأشهر والأكثر استخدامًا بين كل ما هو موجود على شبكة الانترنت، فهى تتيح استخدامًا يوميا لا نهائيًا غير محدود حتى أصبحت الشغل الشاغل للأفراد ومصدر انبهار المجتمعات والأفراد، ونقلة نوعية عالمية في مجال تبادل المعلومات والاتصالات في زمن قصير نسبيًا، كما أسهمت فى تقريب المسافات والتعبير عن الأفكار والمعارف والثقافات، فهى فرصة لتقديم الذات والتعبير عنها، والتنفيس عن الانفعالات ومشاركة في الأفراح والأحزان، واكتساب الصداقات فى كل الأعمار، وتشير الاحصائية إلى أن صداقات المسنين فى ظل علاقات افتراضية عبر مواقع التواصل تنقذهم من العزلة التى تزيد من احتمالية الوفاة المبكرة بنسبة ١٤%، وأن ٢٥% من الأفراد يذكرون أن مواقع التواصل تجعلهم أقل شعورا بالوحدة، و ١٢% يذكرون أنها تجعلهم أقل شعورا بالقلق، و ٢٠% يذكرون أنهم يصبحون أكثر ثقة ، و ١٨% يقررون أنهم يصبحون أفضل حالا فى المجمل، و ٢١% يؤكدون أنهم يصبحون أكثر شعبية.

إن العالم الافتراضي واسع عريض لا حدود له ولا يوجد به مقص رقيب، يضمن معرفة الخبر أولاً بأول بخلاف الجرائد والصحف وحتى الفضائيات، وبات هناك مايعرف بصحافة المواطن أو بالإعلام الرقمى، وهى منصات لإطلاق الحركات والدعوات والثورات ومجال لرفع الرايات والتعبير عن الحريات وساحة لفرض الفكر والأيديولوجية وميدان للمعارك الفكرية، ونقل الأفكار السياسية ومناقشة انتشار ظواهر محددة.

وفى العالم الافتراضى يمكنك أن تفوز بفرصة للمشاركة في أنشطة خيرية من خلال دعوات للمشاركة في احتفالات أو مناسبات خيرية مثل يوم اليتيم أو دعم مرضى السرطان،

وغيره من الأعمال التطوعية التي تصبح رائدة ويتم دعمها بفاعلية، وللحصول على معلومات عن الطهي، والتغذية، وتربية الأطفال، وتنسيق الديكورات، والتنظيف، والعناية بالبشرة والجمال، والتدبير المنزلي.

وفى خضم العلاقات الافتراضية يمكن اكتشاف المواهب وأصحاب القدرات الخاصة والأعمال المميزة، والإعلان عن الذات وعرض مواهب من لايملكون إمكانية اقامة معارض أو تعريف الجمهور بهم بأى وسيلة، ومنصة لانطلاق مشاريع شخصية وابداعات عملية تسهم في نمو الأفراد والمجتمعات، والاعلان عن فرص عمل، وأسواق فى كل مكان ومنتديات نسائية وخلافه، كما يمكن تقديم نماذج قدوة وأمثلة من مشاهير المجتمع وعلمائه وأدبائه وكتابه وسياسييه وعلماء الدين إلى عامة الأفراد وإمكانية الاتصال بهم مما يجعل أعمالهم أكثر تأثيرا، وذلك لانها شبكة إعلانية دعائية ترويجية وساحة للتجارة الإلكترونية ، ففيها تسويق وبيع وشراء وتبادل وتنازل وإعلان عن مقتنيات نادرة وعقارات.

وعبر العلاقات الافتراضية يمكن فتح بوابة معلومات وخدمات تعليمية وثقافية تسهم في إثراء المعرفة وتوسيع المدارك والمعارف وتتيح فرصًا أكبر للاطلاع، وتوفر تغذية راجعة، وتنمي التفكير، وتشجع على التعلم الذاتي، وتساعد على استثمار الوقت في التعلم وتتيح فرص التواصل مع الأساتذة والخبراء، كما يتم تقريب الفجوة بين الأجيال فالصغار يتابعون ما يكتب الكبار، والكبار يطلعون على ما يكتب الصغار، وأصبح كلا الفريقين يعرف كيف يفكر الطرف الآخر، وهو مالم يحققه التعليم مثلا أو الاعلام، ودائما هناك الوجه الآخر للرواية من حيث أن البعض يعتبرها سببا فى تعميق الهوة بين الأجيال بسبب تقليص فرص الحوار والتواصل، والصراع الآن بين جيلين: جيل يبحث عن المعلومة أنى وجدها وجيل يخشى مما يجهل ولا يجترأ على الدخول.

وفي مقدور الطلاب الموهوبين والمبدعين داخل هذه المدارس توظيف عناصر البيئات الافتراضية، بما تتضمنه من وسائط إلكترونية مساندة، وأدوات الكترونية مساعدة، وحزم برمجية يتم تطويرها لمساعدة المعلمين على إدارة العمليات المختلفة في بيئات التعلم الإلكتروني، من أجل تنمية مواهبهم وتطويرها وتلبية احتياجاتهم المختلفة، ويتم ذلك من خلال تعزيز العلاقة التفاعلية التعاونية بين مختلف أطراف العملية التعليمية، ومن خلال التنوع في مستوى الأنشطة والمشروعات التي تتسم بالتعقيد والعمق والتجريد، وتساعدهم

على تنمية مهارت التفكير الإبداعي والناقد وتوظيفها في حل مشكلات واقعية، حيث يسمح التمكين الرقمي في التعليم لهؤلاء الطلاب بالحصول على معارف ومعلومات متقدمة، ويساعدهم على الانتقال إلى المزيد من الأنشطة بوتيرة أسرع، ونشير في هذا السياق إلى أن البيئات الافتراضية التعليمية لا تَعني فقط تحويل المحتوى إلى قرص مدمج أو عرضه باستخدام برامج العرض، بل يجب تحويله إلى أنشطة إلكترونية تفاعلية يكون الطالب فيها هو الباحث، والمحلل للمعلومات، والمفكر المبدع، بينما يأخذ المعلم دور المرشد والميسر للطالب في تعلمه الذاتي، كما يجب أن تصمم هذه البيئات الافتراضية بصورة تتناسب مع طبيعة وخصائص الطلاب الموهوبين والمبدعين، وقد يكون من المناسب في هذا السياق توفير برامج تدريبية تمكن المعلم والطالب الموهوب من توظيف هذه التقنيات الرقمية.

وقد أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي ومانشأ على فضائها من علاقات افتراضية مصدر الإتاحة الأساسي لكل خبرات التعلم والتعبير عن المواهب والابداعات، إذ تستخدم في التدريس والبحث عن المعلومات وفي التوظيف وفي كل مجالات الحياة، وإن سألت نفسك كوالد أو كمعلم عن آخر مرة رجع فيها ابنك أو تلميذك لقاموس أو مرجع أصيل أو دائرة معارف فسوف تذهلك الإجابة، فأبناؤنا وقد أصبح العالم الآن وحرفيًا بين أصابعهم على لوحة المفاتيح لا يعرفون طريقة أخرى للحصول على المعلومات غير تلك الموجودة على شبكات وصفحات الإنترنت، وإن كنت تظن أنها ليست مسألة خطيرة فعليك أن تعيد النظر، وما نلاحظه فعلاً أن مواقع التواصل وغيرها من الصفحات على شبكة الإنترنت قد غيبت الخصوصية وشجعت على المقارنة والانتقاد ورفعت وتيرة القلق والتعلق بالرموز والتغريدات وليس بالحقائق وليس بالواقع.

وفى عالم العلاقات الافتراضية يمكن التقليل من الشجار والنكد بين الأزواج لأن شاشات الهاتف المضيئة وصفحات الموضة والمطبخ والماكياج ألهت الزوجات عن مناكفة الأزواج، وحتى بين أفراد الأسرة ككل، فالكل أصبح له عالمه الملئ بالسحر ولا مجال للصدام والخلاف، بل إن بعض السيدات المتزوجات يعتبرن أن الهاتف أهم من أزواجهن، كون هؤلاء الأزواج مشغولين بعملهم عنهن، والهاتف يضمن لهن تواصلا يفتقدنه مع هؤلاء الأزواج.

وهاهو الوجه الآخر للعلاقات الافتراضية على الأجهزة الذكية يطل بهجمة على العقل البشري وليس القول مجازًا أو تعبيرًا أدبيًا بل هي فعلاً على المستوى الحسي سبب تلف

وتدمير بعض مراكز المخ التي تُستهلكُ خلال التعرض المستمر للشاشات، وهى أيضا هجمة على القلب والأوعية الدموية وتسبب بعض الأمراض الإلتهابية، كما تسبب الإجهاد والتوتر، واضطرابات المزاج، واضطرابات الأكل واضطرابات النوم، وضعف التركيز، وضعف الجهاز المناعى، والإحصائيات تشير إلى أن ٥٧% من أبنائنا فى مرحلة المراهقة يتفقون على أن وجودهم على هذه الأجهزة يسبب لهم التشتت أثناء تأدية واجباتهم، وأن ٢٩% منهم يشكون من الأرق وتقطع النوم ليلا للرد على الرسائل التى ترد لهم.

وفى سماء العلاقات الافتراضية يأتى ثاني أسوأ السلبيات فيما تنطوى عليه مقولة الطبيب السعودي عبد الرحمن الحبيب: "غابت خلوة النفس وبات الجميع مخترق الخصوصية وتبدل المجتمع". فقد غابت الخصوصية وأقدم الجميع على المقارنة والانتقاد وارتفعت وتيرة القلق والتعلق بالرموز والتغريدات وليس بالحقائق وليس بالواقع، إلى جانب محاولات التنمر والتحرش والتهديد والتحريض، ناهيك عما يسمى بالمشاركة الأكثر خطورة وهى مشاركة مايزيد عن اللازم من المعلومات الشخصية، وهو مايسبب الندم عاجلا وليس آجلا، فقد سجلنا وصورنا أحلامنا وأفكارنا وخواطرنا وتجلياتنا، وحتى أحقادنا وحتى ترهاتنا، وقدمناها للآخرين على طبق من ذهب، ولا تسأل بعد ذلك عن الفرق بين الحقوق العامة والحقوق الخاصة.

وغاب السبق الصحفي، ناهيك عن غياب المصداقية والمصدر الموثق، فالحياة افتراضية والعلاقات افتراضية، وربما لاملكية فكرية ولامصادر موثوقة، إلى جانب خطورة الصفحات التى تعتبر نفسها مصدرا للتوعية الصحية، ويتم تداول معلومات طبية عليها، أو الإعلان عن أو تسويق مكملات غذائية أو مستحضرات تجميل وبشرة وتخسيس وغيرها، ذلك أن ٦٠% من هذه المعلومات مغلوطة أو مبهمة ومن غير المتخصصين، وأن كل ١ من ٤ يتابعونها للأسف عبر صفحات تسمى نفسها صفحات طبية.

وفى سياق الحياة الافتراضية تكون ملاحقة الأخبار على نحو ما يلاحق المدمن مادة المخدر التي يتعاطاها بما في ذلك ملاحقة أخبار الغير وتفاصيل حياة الغير، ورصد حركاتهم، فمن خلال مواقع التواصل تعرف أن منافسك فى المدرسة قد حصل على وظيفة مرموقة، وأن جارك قد جاءته فرصة سفر، وأن حبيبك السابق يعيش الآن قصة حب سعيدة، يتابع الأفراد

تفاصيل الحياة العاطفية والمهنية، ومستجدات الوجهة السياحية، والسؤال: كيف نرجع حيث كنا، نسير بجانب بعضنا البعض ولانتتبع بعضنا البعض.

وماذا نملك إزاء انتشار الشائعات والأكاذيب والأخبار التى تشعل الفتن والإستثارة، ناهيكم عن غياب الرقابة، فكثير من المستخدمين لا يتحملون مسئولية ما ينشرون ولا يحاسبون عليه، كما يتم إلقاء التهم وتبادل السباب والهجوم على الرأي الآخر، ونشر الأخبار السيئة أو التشهير وهدم السمعة وهدم البيوت، إن مواقع التواصل ساحة لتصفية الحسابات كما هى ساحة للنفاق والمداهنة، وفى مقولة لأحد الكتاب وهو أسامة غريب: مواقع التواصل لم تعلم الناس (الفحش) ولكنها شجعتهم على المجاهرة به، بعد أن أدرك كل فاحش أنه ليس وحده فى هذا العالم، وإن كنت لا تعرف للأسف أو لا تتابع أن هناك إلحادا، وشذوذا، ونصبا واحتيالا، فعلى صفحات مواقع التواصل يمكنك أن تعرف كل شيء

وقد سبقت الإشارة إلى ضياع الهوية العربية بسبب اللغة التي بين العربية والانجليزية، فهى تشبه بالغرب ومظهر من مظاهر الاغتراب، والمؤسف أيضا هو ابتداع لغة خاصة تستخدم فى مراسلات الإيميل والمدونات والمحادثات، وتعابير مستحدثة مليئة بالصور والرموز والوجوه والإشارات بدلا من الكلمات، ناهيكم عن ظاهرة ضعف الأداء اللغوى وشيوع الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية أو الكتابة بالعامية، ومما يؤسف له أن كل ذلك يحدث في زمان مهدر ووقت ضائع، فالوقت أصبح للفيس وليس للأحبة.

هذا وقد أضرت العلاقات الافتراضية بالتواصل، فقد يكون لك ألف صديق من غير صداقة ومشاركة حقيقية، ناهيك عن العزلة عن المحيط الأسري والاجتماعي، لم تترك مواقع التواصل أحدا إلا وعزلته عن حياته اليومية والإجتماعية وأدواره ومهام عمله: الأصحاب، والأزواج، وحتى الصغار، وبعض الأمهات تعتبر ألعاب وفيديوهات اليوتيوب وحكايات الأطفال أفضل جليس للطفل، ويتفق حوالى ٤٢% من الأفراد على أن الحياة الافتراضية تستقطع الوقت الذى يجب أن يقضونه مع أصدقائهم وجها لوجه، وهى أقصر الطرق حاليا لحدوث الطلاق أو الانفصال بين الزوجين، نسبة ٢٠% من حالات الطلاق فى المجتمع الأمريكى سببها الفيسبوك، و٤٠% من حالات الطلاق سببها الواتس آب فى إيطاليا، و ٣٣% من حالات الطلاق فى الكويت سببها مواقع التواصل، ويجب وضع هذه الاحصائيات فيما يناسبها كونها فى مجتمعات مختلفة عن مجتمعاتنا من حيث التقاليد والأخلاق

تؤدى مسألة الانغماس فى العلاقات الافتراضية إلى اشتعال نذر الخلاف بسبب استحواذها على حياة أحد الزوجين وشغله عن شريك حياته، وبخاصة إذا كان يقضى بها ومن خلالها وقتا ينافس الوقت الذى يقضيه مع زوجه، الأمر الذى يوسع هوة الخلاف إن وجدت، وللأسف هناك إشارة إلى مسمى جديد هو الخيانة الرقمية، دخل ساحات القضاء فى قضايا الإنفصال والطلاق، وهى حالة تبدأ باستسهال الدخول فى محادثة مع غرباء افتراضيين، ومالم يكن ممكنا التلفظ به فى الواقع أصبح سهلا قوله عبر لوحة المفاتيح للأسف، إذ يخلع الواحد منهم شخصيته الرزينة الكاملة، وتكون نقطة الضعف هى ضغطة إعجاب على منشور تكون بداية تحريك الشر وتكمل دائرة السوء نفسها.

وفى الحياة الافتراضية استبدل الأبناء الآباء بمواقع التواصل والتصقوا بالغرباء على فضاء مواقع التواصل، وأصبح التواصل افتراضيا ومفروضا على الجميع بشكله الجديد، وعلى مواقع التواصل نعايش ولا نتعايش، نلتقط الصور لنرفعها ولا نمتع ناظرنا برؤية الوجود والأماكن والآثار، على مواقع التواصل نفقد الشعور باللحظة لأننا نصور حياتنا بدلا من أن نعيشها، نخرج ونتنزه ونضحك فقط لنلتقط الصورة ونرفعها على صفحات مواقع التواصل، فقدنا إحساسنا باللحظة نفسها بسبب استخدام الكاميرا طول الوقت، لقد جعلتنا عصا السيلفى ندير ظهرنا للعالم ونعطى وجهنا لشاشة الهاتف، وتم استبدال تجربة السفر والمغامرة والفن والجمال والتذوق والتاريخ بتمثيل رقمى للأشياء وتجميع لأكبر عدد من الصور، المهم ليس التجربة ولا المعايشة ولا المغامرة، المهم كيف سيراها وينظر لها الآخرون عندما أشاركها على صفحتى.

فى الحياة الافتراضية يكون من السهل جدًا قطع أي علاقة من خلال ضغطة زر، أما فى الحياة فالفرصة أفضل للإحتفاظ بالعلاقات، حتى الحب وهو أجمل مشاعرنا أصبح فى خطر، فالحب يبدأ: غريب.. صديق.. حبيب.. ثم بلوك، نهايات الحب فى زمن العلاقات الافتراضية ليست نهايات روايات شكسبير بل إن البلوك الآن هو النهاية، وأصبحت الحكمة الآن تقول: تكلم حتى أعرفك وأعملك بلوك، قد يكون ذلك على سبيل المزحة لكنه أصبح فعلا واقعا، وسابقًا كان الفرد يصله اتصال فيستأذن ويغادر ليرد، ويعود ليعتذر مرة أخرى، أما الآن فكلنا وجوهنا للشاشات فقط، وراقبوا المنظر فى اجتماع أسرى أو حتى خروجة أصحاب.

لقد غاب أيضًا فى العلاقات الافتراضية التواصل غير اللفظي وفقدت الرسائل ٩٣% من دلالتها، فنبرة الصوت ونظرة العيون تلطف الحوار وتستبقى الود حتى في وقت الغضب أو العتاب أو الشجار، فالعقل يميل إلى تحميل المعنى الأسوأ طالما يخلو الكلام من تعبيرات تلطيفية، وعلى مواقع التواصل لاتسألنى عن الوقت الكافي لاختيار أفضل الكلمات ومايمكن أن تستعين به لتلطف التواصل كلغة الجسم والعين، وتعبيرات الصوت، كل ذلك فقدناه وأصبحت مشاعرنا للأسف وجوها تعبيرية انفعالية، كم هذا سخيف وفيه تكلف، أن تصبح هذه الوجوه هى المعبرة أو هى البديل للتعبير عن مشاعرنا وانفعالاتنا، عن نفسى أقول أننى أكره هذه الوجوه، وعندما يرسل لى ابنى واحدا منها أو عشرات، أطلب منه الترجمة، وهو مايذكرنا بالألكسيزيميا ونقص الذكاء فى اختيار المفردات للتعبير عن المشاعر، ورغم ذلك فلابد من القول أن تلك الرموز قد تطورت لتستوعب الثقافات المختلفة، ومازال سباق التصميمات متسارعا من أجل تطويرها وتضمينها أكبر عدد من الدلالات، حتى وإن استدعى ذلك تحديث البرامج والتطبيقات كليا.

إن هذه الرموز لغة افتراضية غير لفظية تحمل معان عدة، فيها اللطف والتأنى وعدم استعجال الرد، وفيها الوضوح والبيان إن عجزت الكلمات أحيانا، وهى وسيلة فى آن وغاية فى أخرى.

وهناك وجه ثان للرواية، فكل شيء له وجه إيجابي ووجه سلبي أو حسب ماينا‌سبك، مواقع التواصل بالنسبة للبعض هى الأكثر أمانًا لأنها دائمًا تتيح المسافة التي بدون مواجهة، وتتيح الإفتراضية والتخفى والمجهولية، يمكنك أن تشارك دون أن تكون معروفا، تخفى هويتك وراء اسم مستعار أوما يعرف بالحساب الزائف، شريطة ألا تقصد إيذاء أحد أو التشهير به، فتلك قصة أخرى، كل ما في الأمر أنك بذلك أكثر إحساسًا بالأمان دون كشف عن الذات على نحو لا تحبه، كل هذا مقبول على حساب التواصل الذى يجب أن يكون أكثر قربًا وتفاعلاً ووجهًا لوجه، ومباشرا وحميميا، وهذا هو مافقدناه فعليا، التواصل انسانًا لإنسان، قلبًا لقلب، عقلاً لعقل، وجهًا لوجه، ومن هنا غيرت مواقع التواصل مفهوم الكشف عن الذات والمسافة الآمنة فى الكشف عن الذات واعتبارية هذه المسافة لدى البعض

لقد غيرت الحياة الافتراضية مانعرفه عن مقتضيات العلاقات التى أصبحت افتراضية، وعن المشاركة وتبادل المشاعر المتدفقة، فكل عبارات التهنئة والعزاء وكل المشاركات أصبحت

نسخاً وكتابةً ومشاركةً، متكررةً وفارغةً من الصدق، وقد تكون رسالة واحدة ويتم إرسالها لكل للجميع دون اهتمام وبلا فرق، وغيرت أيضا مفهوم ومعنى المواعدة والتقدم للجنس الآخر، فالشاب يعفى نفسه من مخاطرة القبول وعدم القبول ورد فعل الشريك الآخر، كل المطلوب هو إرسال طلب صداقة، وأصبح الجيل الحالى جيلا رقميا لايقدر مفهوم السلامات والزيارات ولايعرف إلا الإصدارات والمشاركات، ويعرف كيف يقتحم العلاقات ولا يخافها، ولم يعد الأمر يحتاج منه ترددًا وتفكيرًا، فالمسألة لم تعد تكلف أكثر من طلب إضافة، وللأسف الشديد تغير مفهوم التنشئة وأصبح تحديا يحتاج إلى مواجهة، وتغيرت مهام الوالدين فى ظل وجود شريك أساسى أصبح فردا من أفراد الأسرة كما ذكرت سابقا، وهاقد تغير مفهوم الهوية والكيان المحدد، وأصبح الحساب أو صفحة الإنترنت بمثابة العالم الخاص والهوية والكيان المحدد، بل هى من مستلزمات تحقيق الهوية عبر مراحل النمو، عليها يشارك ويتواصل ويتبادل الخبرات ويطلب النصائح، ويقدر ويقيم حياته وذاته، ويفعل ذلك إذ يقارن بين صفحته وصفحة زملائه من حيث عدد الأصدقاء وعدد الإعجابات والمداخلات.

لقد عرفنا فى ظل الحياة الافتراضية أطفالا ضاعوا على شبكة الإنترنت، يهربون من التواصل ويصابون بالإكتئاب، ويجربون كل مايدمر ذواتهم من قبيل إساءة استخدام الدواء وتجارب الجنس وتدمير الذات، وقلق وإدمان الهاتف، وغيره من مشكلات نفسية وإجتماعية لابد من مواجهتها بكل حذر، والتصدى للعواقب الوخيمة التى تترتب عليها، فأبناؤنا فى ظل علاقات رقمية افتراضية يعيشون فى صمت مع هواتفهم، يزيدون كل يوم عدد أصدقائهم على الصفحات، لكنهم ينعزلون أكثر وأكثر ويهدد القلق الإجتماعى حياتهم، لايمارسون الرياضة وقد يصابون بالسمنة وتآكل الفقرات، إجازاتهم الأسبوعية والصيفية يقضونها داخل صفحات مواقع التواصل بعيدا عن أسرهم، يعبرون عن فرحهم وحزنهم وغضبهم على هذه الصفحات، وإن صرخوا فزعا أو يأسا يفعلون ذلك أيضا على مواقع التواصل لأنهم يعرفون أن صرختهم سوف تذهب إلى أبعد مدى، وقد يصبحون ضحايا الإعلانات المضللة أو الزائفة على مواقع التواصل والتى قد تغرى وتغوى إلى مالا نهاية

أما المشاغبة عبر الإنترنت وفى ظل رقمنة العلاقات والحياة الافتراضية فقد انتشرت انتشارا رهيبا، متمثلة فى فعلين أساسيين هما الكتابة بما لها وماعليها، وقد يكون عليها ولايكون لها، فكل مايكتب الأفراد مأخوذ عليهم، وكل منشوراتهم قد تصبح قرائن أو أدلة

ضدهم إذا تطلب الأمر، ولكم أن تصدقوا أو لا تصدقوا أن الكتابة على الإنترنت ومواقع التواصل أصبحت ثلاثة أضعاف المكالمات عبر الهاتف، ومايرتبط بذلك من مخاطر التتبع أو التجسس أو مشاركة مالا يجب مشاركته، أو استخدام المكتوب فى الإضرار بهم أو الإيقاع بهم بأى طريقة، أما الفعل الثانى فهو تبادل وتداول مالايخطر على البال من أشكال تحرش وإغراء وإغواء وانتهاك ولم يعد الأمر مجرد دخول إلى مواقع إباحية بل أصبح فعلا لازما فى حياة أبنائنا اليومية، ومن أشكال ذلك إرسال رسائل بها صور جنسية خليعة أو عارية أو خلافه، وهم فى أغلب الأحيان لايفهمون أن ذلك يعد جريمة يعاقبون عليها، وقد يفصلون من مدارسهم بسببها، وهناك من ٤–٢٠% من الأطفال والمراهقين يقومون بذلك، وأسوأ مايحدث أن الطفل أو المراهق الذى يتم تداول صورته قد يقتل نفسه خزيًا وعارا، لأنه لايفهم أو لا يستوعب أن أقرانه فعلوا ذلك من قبيل المزحة أو المشاغبة، وهناك ٢٠% من الراشدين يعتبرونها مشكلة خطيرة لأن المؤسف في الأمر هو فكرة الانتشار السريع لهذه الصور التى تبقى على الإنترنت بمثابة تاريخ أسود في ماضي أي شاب أو فتاة، وتشير الإحصائيات أن ٣٥% من الأبناء فى مرحلة المراهقة يتشاجرون مع أصدقائهم ولايخبرون والديهم، و أن ٢٠% منهم ينهون علاقاتهم مع أصدقائهم بسبب كونها افتراضية على مواقع التواصل، وأن ٧٠% منهم بإمكانهم إخفاء حقيقتهم عبر الإنترنت، وأن ٤٣% منهم يدخلون إلى مواقع عنف وعدوان، و٣٦% يدخلون إلى مواقع إباحية، و١٦% يغشون فى الإمتحانات عبر مواقع التواصل، هذا إلى جانب أن مانسبته ٤٨% من هؤلاء الأبناء يبحثون عن إجابات أسئلتهم من خلالها.

ولا نغفل شكلا مؤسفا للعلاقات الافتراضية يتمثل فى عالم الإنترنت المظلم..... ليس مظلما بل شديد السواد. فلا رقابة ولا تتبع ولا أمن ولا أمان، بل قرصنة وإرهاب، بل وأسوأ مما يخطر ببال.... قتل ومخدرات وممنوعات وتجارة سلاح وأعضاء بشرية، وجنس واغتصاب أطفال.

هل خطر ببالك ماهو أسوأ؟ نعم .. الأسوأ متاح هناك، فبرامج ودورات التدريب على عمليات الإختراق تتم عبر شبكات مافيا عالمية، وليس هناك احتمالية للتسلية أو اللعب، فإن قررت الدخول إلى الإنترنت المظلم أو حتى تصفح مواقعه فقد لا يكون سبيلك إلى الإفلات من بعدها ممكنا.

هل تعرف عزيزى القارىء أن جوجل وأمازون ومثيلها من المواقع ليست هى كل الفضاء المتاح على شبكة الإنترنت، وأنك يمكن ألا تكون بمأمن عند تصفح غيرها من المواقع المشفرة أو المخفية؟ فماالذى يضطرك إلى خوض المخاطرة بأن تكون هدفا لهجمات التجسس والإختراق؟

ورغم كل ماسبق فإن مانسبته ٨٤% – بحسب إحصائيات عديدة – من مواقع الإنترنت تنتمى إليه، وتستخدمه بعض الحكومات وبعض السفارات، وكذلك بعض الساسة ورجال الأعمال والصحافة، ويضمن لهم جميعا عدم الكشف عن الهوية وحقوق الخصوصية فى علاقات افتراضية رقمية لها رموزها وشعاراتها وأشكالها المميزة ، وعلى أرض الخدمات المخفية كما يُعرف هذا العالم تتم أخطر عمليات التشفير والمراوغة، ولا ينصح للأفراد بارتيادها والدخول فى علاقات من خلالها دون اتخاذ التدابير اللازمة لضمان الحماية.

وجدير بالذكر أن ماعرف بطريق الحرير Silk Road كان أول منصة تأسست العام ٢٠١١ على شبكة الإنترنت المظلم، وتم استبداله بعديد من الأسواق غير المشروعة، وفى العام ٢٠١٥ بدأت وكالة ناسا العمل على ماعرف بمحرك البحث MEMEX القادر على فهرسة وتتبع وتحديد أنماط معينة للأنشطة على مواقع الإنترنت المظلم، والكشف عن الجرائم وعمليات التهريب وغيرها.

وانطلاقا من التسليم بأن حياتنا الافتراضية وعلاقاتنا الافتراضية على شبكة الإنترنت هي مصدر معلوماتي في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والصحية، ولها تطبيقات عديدة في مجال تقديم الخدمة النفسية وتعد موارد واعدة في تطوير امكانات تقديم هذه الخدمة، وفي تحديد معالم الرفاهية النفسية للفرد فإننا نريدها شاهدا لنا لا شاهدا علينا، نريد أن نتعلم منها أفضل تعليم، وأن نستفيد من الإتاحة والتبادلية التى وصلت لأقصى سرعة وتسهيل، وأن ندقق فيما نكتب فعلينا كتبة حافظين، ولنكن مستخدِمين لا مستخدَمين.

وتأمل الكاتبة أن تكون قد وفقت فى هذا العرض إلى إفادة المهتمين والمعنيين والمهتمين بالصحة النفسية لأبنائنا فى عصر جديد يُلح على الجميع أن يقوم كل بدوره وفى مجاله، ومن الله التوفيق والسداد إن شاء الله، وأختم بقول الشاعر:

وما من كاتب إلا سيبلى..... ويبقى الدهر ماكتبت يداه

فلا تكتب بكفك غير شيء. ..... يسرك فى القيامة أن تراه.

أما وأننا بين الوهم والحقيقة، وبين الواقع والافتراضية، وبين المتخيل والملموس ... فإلى أين نحن سائرون؟

سؤال يطرح نفسه.

المراجع

أسماء حسين ملكاوى(٢٠١٧). أخلاقيات التواصل فى العصر الرقمى.الدوحة، المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات.

جمال سند السويدى(٢٠١٣). وسائل التواصل الاجتماعى ودورها فى التحولات المستقبلية: من القبيلة إلى الفيسبوك. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

عبدالحكيم أحمين(٢٠١٧). الهويات الافتراضية فى المجتمعات العربية.الرباط ، دار الأمان.

مصطفى الطائى(٢٠٢٠). الإعلام الجديد وآثار تحوّل المجتمعات العربية من العلاقات التقليدية إلى الافتراضية: دراسة ميدانية على عينة من مستخدمي مواقع التواصل العرب بدولة الإمارات.المجلة العربية للإدارة،٤٠، ١، ١٤٢–١٢١.

منال عبدالخالق جاب الله(٢٠١٩).التحديات التى تواجه التربية الأسرية وكيفية مواجهتها. تأثير وسائل العلام ومواقع التواصل على التربية كمثال.مجلة أبحاث ودراسات تربوية.العدد ٩، السنة الخامسة، صيف ٢٠١٩، بيروت، لبنان.

نادية زيد الخير، بدر الدين زمور، سعاد لعريبى(٢٠١٩). تأثير وسائل التواصل الاجتماعى الافتراضية فى منظومة اللغة العربية وتطويرها لأساليب التواصل اللغوى.المجلة الدولية للدراسات التربوية والنفسية،المركز الديمقراطى العربى،ألمانيا، برلين.

AdamHayes (2019). *Digital Immigrant:* https://www.investopedia.com/terms/d/digital-immigrant.asp

Kerry Maxwell (2020*). Digital wildfire*, In Macmillan Dictionary, Macmillan Education Limited: https://www.macmillandictionary.com/.../digital-wildfire...

Lomanowska,A.M.&Guitton,M.J.(2016).*On Line Intimacy and Well-being in the Digital Age.* Internet Interv,4,138-144.

Lui,D.,Baumeister,R.F., Yang, C.C.&Hu,B.(2019)*Digital Communication Media Use and Psychological Well- being.AmETA – Analysis* . Journal of Computer- Mediated C ommunication,24,5,259-273.

Thompson, D. (2014).*The most popular social network for young people? Texting*. Technology, June, 19.

Thompson, L.A., Black, E.W., & Mezzina, K. (2016). *Anonymous social media– understanding the content and context of yikyak*. Journal of computers and human behavior, 57, C, 17-22.